الفصل الثامن

المراقبة وإصلاح السرائر

إن أعظم النعم في هذه الحياة أن يعيشها العبد على مراد ربه ومولاه ونبيه ومصطفاه، فيحيا حياته عبودية لله ومن كان كذلك سعد والله في دنياه وأخراه، ومن أهم ما يدفع الإنسان لذلك أن يعلم صفات ربه وعظمته وجلاله، وقدرته وعزته وحكمته، وكمال علمه وأنه لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا بإذنه، ولا يغيب شيء عن علمه وسمعه وبصره جلَّ جلاله.

وإن الناظر إلى حال أهل هذا الزمان في هذه الأيام يرى جرأة على معاصي الله، وغفلة كبيرة، ولهوًا غالبًا، وهوى متبعًا، وشهوات مسيطرة ولذا كان من الحكمة أن نكثر من الحديث عن المعاني الإيمانية التي تؤصل في النفوس ضرورة الفرار إلى الله والإقلاع عن الذنوب المهلكة الموبقة التي تردي صاحبها إلى دركات الجحيم إن لم يتداركه الله برحمته.

والمعنى الذي نتوقف معه في هذا الآن هو مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن فما هي المراقبة؟

معنى المراقبة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

ولما سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)]، قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: فسَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإحسان حين سأله جبريل فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة؛ فإن من راقب الله أحسن عمله[(٢)].

ربنا رقيب علينا

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، اعلم أن الله يعلم ما تخفيه وما تبديه، وما تخطط له وما تفكر فيه فراقب نظر الله إليك واطلاعه عليك وعلمه بك، واحذر أن يرى منك ما يغضبه ويستجلب لك عذابه، وإياك أن تظن ما ظنه الجاهلون الغافلون الذين زعموا أن الله لا يسمع سرهم وعلانيتهم فبئس ما يظنون قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به بل هو سرٌّ في قلوبهم، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفى منها فرد الله عليهم بقوله ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه وسيحفظ ذلك عليهم حتى يردوا القيامة فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا[(٣)].

---

(١) رواه مسلم برقم [٨] من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «لسان العرب» (١٣/ ١١٥).

(٣) «تفسير السعدي» (٩١٤).

إن كل كلمة يتكلم بها العبد تُسجَّل عليه ويحصيها الله عليه كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وهذه الآية كقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وكل ما يفكر المرء فيه وكل ما يعمله فإن الله يعلمه ولا يغيب عنه سبحانه من أعمالنا شيء قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١]، وفي هذه الآية الكريمة العظيمة يخبر تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾. [هود: ٦]

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء؛ فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، أي: إذ تأخذون

في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون[١]. فالله تعالى مراقب لجميع الأعمال والأحوال ولا يغيب عنه شيءٌ من أمرنا أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. وهذا وعيد من الله خرج مخرج الأمر كما يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول جل ثناؤه: إن الله أيها الناس بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه منها ولا من غيرها شيء[٢].

وصية نبوية

من شدة حرص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته أن أمرهم بكل ما فيه الخير لهم ونهاهم عن كل ما فيه مضرة عليهم ومن المعاني الإيمانية العظيمة التي أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها أمته مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في الظاهر والباطن وأوصانا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن نراقب الله في كل حال من أحوالنا في السر والعلن، في العمل، وفي البيت، وفي الطرقات، في السفر والحضر، في الصحة والمرض، وفي كل موطن وموقف أمرنا رسول الله أن نراقب الله العليم الخبير الذي لا يغيب عنه شيء من أمرنا فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتق الله حيثما كنت**»[٣].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احفظ الله يحفظك**»[٤]، وخص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلوات بمزيد من ذلك؛ لأنها مظنة الجرأة على معصية الله فعن أسامة بن شريك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت**»[٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٤/ ١٩٣-١٩٤) ط. التوفيقية.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٧٦) ط. الرسالة.

(٣) رواه الترمذي برقم [١٩٨٧]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٩٧].

(٤) رواه الترمذي برقم [٢٥١٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٥٧].

(٥) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» ص [٢٦]، و «الضياء في المختارة» (١/ ٤٤٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٠٥٥].

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات امثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ هباء منثورًا**» قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»[(١)].

وصايا الربانيين بمراقبة رب العالمين

قال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الله في جميع الأوقات وقال أبو عثمان الزاهد: سرائركم سرائركم؛ فإن المطلع على السرائر يراقبكم[(٢)].

قال حاتم الأصم: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكتَّ فاذكر علم الله فيك[(٣)].

قال الربيع بن خثيم: إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر عمله بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][(٤)].

قال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تكن وليًا لله في العلانية وعدوه في السر.

وقال ابن الأعرابي: أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح عمله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.

---

(١) رواه ابن ماجه برقم [٤٢٤٥] وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٥٠٥].

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ١٥٠) برقم [٧٧٥١].

(٣) «السير للذهبي» (٢٢/ ٨٤) ط. الرسالة.

(٤) «صفة الصفوة» بنحوه عن حاتم (٤/ ١٦٢).

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله، فسأله عن تفسيره فقال: كن كأنك أبدًا ترى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال سفيان الثوري: عليك بمراقبة من لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء.

وعن شقيق بن سلمة أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨]، قال: لقد علمت أن التقي ذو نهية.

وقال بعضهم: استح من الله على قدر قربه منك، وخف الله على قدر قدرته عليك.

وقال بعضهم:

من عامل الله بتقواه ... وكان في الخلوات يخشاه

سقاه كأساً من لذيذ المنى ... يغنيه عن لذات دنياه

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد قيل: من راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظه من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة، والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركات سره وعلانيته[١].

عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال: تدري من هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلًا يكفيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى وأن الإثم لا ينسى.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيشمت به يوم القيامة كل عدو[٢].

وقال ذو النون: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية[٣].

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أسر أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٤].

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٣١١]، ط. المكتبة القيمة.

(٢) «الداء والدواء» لابن القيم ص [٨١-٨٢]، ط. دار ابن رجب وقال محققه: إن في هذين الأثرين انقطاعًا.

(٣) المصدر السابق ص [٨٣].

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٤١)، ط. جمعية إحياء التراث بالكويت.

فيمَ يراقب العبد ربه؟

إن المؤمن الفطن الصادق يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في كل أحواله ظاهرًا وباطنًا ومن تلك المواطن التي نشير إليها في هذه الصفحات ما يلي:

أولًا - مراقبة الرب في توجهات القلب:

وذلك بأن تصرف كل عبودية في القلب لله جَلَّجَلَالُهُ فلا يرى الله في قلب العبد ما يناقض تلك العبودية كأن يحب غير الله أكثر من حبه لله أو مثل حبه لله، أو يثق في غير الله مثل ثقته في الله وغير ذلك من أعمال القلوب، إنه لازال في الناس من يتعلق قلبه بقبر أو ضريح، ومن يثق في دجال معربد، ومن يعتقد أن مخلوقًا يملك ضرًا ونفعًا أو يعلم غيبًا، فبئس ما يصنعون! لازال في الناس من إذا أصيب ببلاء في نفسه أو ماله أو ولده يظل يشكو إلى هذا ويشكو إلى ذاك ويشكو ويشكو وينسى أن يقول ياالله! سبحان ربي! أين تضرعك إلى الله؟! أين دعاؤك؟! أين ذُلك لله؟! إن الخلق لا يملكون شيئًا لأنفسهم فضلًا عن أن يملكوا لك شيئًا الخلق كلهم ضعفاء عاجزون، فقراء ذليلون والله وحده هو الذي يملك أن يرفع عنك البلاء ويدفع عنك الضراء، الله وحده هو الذي يملك أن يغنيك ويعزك ويعليك، ويشفيك ويهديك، ويرحمك ويعطيك ومن الخذلان حقًا أن تحرم من اللجوء إلى الله والله جَلَّجَلَالُهُ يقول: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فليُرِ العبد ربه من قلبه أنه لا يعظم أحدًا إلا الله، ليرى الله من قلبه أنه ليس في قلبه ذل واستسلام إلا لربه، وليكن لسان حاله ومقاله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فمن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ومن توكل على الله كفاه، ومن لجأ إليه آواه، ومن اعتصم به ودعاه نجَّاه، فكل شيء في الكون بإذنه، ولا يتحرك متحرك

ولا يسكن ساكن إلا بأمره، فلله الأمر من قبل ومن بعد وله الحكم وإليه المرجع والمآب سبحانه وبحمده، فلتكن كل عبودية القلب والجوارح خالصة لله وحده، فإنه يستحق أن يعبد إلا الله الخلاق العليم العزيز الحكيم.

ثانيًا- مراقبة الله في الأعمال والعبادات:

وذلك بأن يحرر الإخلاص في كل عمل، ثم يتقن هذا العمل وذلك لتيقنه أن الله عَزَّوَجَلَّ ناظر إليه، مطلع على حال قلبه، ففي الصلاة مثلًا يقبل عليها بحب ويحقق فيها الخشوع ويكون فيها حاضر القلب مناجيًا ربه متذللًا له يستحضر في كل كلمة في الصلاة سمع الله لها، فيصدق في كل لفظة ويواطئ قلبه لسانه، ثم هو من قبل ذلك لا يؤخر صلاة عن وقتها ولله در محمد بن علي الأنصاري الحفَّار الغرناطي قال عنه ابن الخطيب: قد بقي الحفار نحوًا من عامين أو أزيد يخرج للصلوات الخمس يهادى بين رجلين لشيء كان برجله حتى كان بعض أصحابه يقول: الحفار حجة الله على من لم يحضر الجماعة[(١)].

وهذا الإمام عامر بن عبد الله بن الزبير يقول عنه مصعب كما في السير للذهبي: سمع عامر المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: خذوا بيدي فقيل: إنك عليل قال: أسمع داعي الله فلا أجيبه! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ثم مات[(٢)].

ثالثًا- مراقبة الله في البصر:

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها لا تغيب عنه سبحانه نظرة ولا خطرة قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، قال ابن

(١) «الدرر الكامنة» (٤/ ١٩٩).

(٢) «السير للذهبي» (٥/ ٢٢٠).

القيم عليه رحمة الله: والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فالنظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده[1].

نعم إخوتي فإن من دامت إلى الحرام نظراته دامت في الدنيا حسراته، وتشقق عزم قلبه وضعف ثباته، ومن غض بصره أطلق الله نور بصيرته، ومن غض بصره وجد في قلبه لذة الإيمان، وظهر على وجهه بهاء الطاعة ونورها قال بعض السلف: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات، ويكفي هذا الغافل الذي يعبث بعينه في العورات ويعيث بها فسادًا بالنظر إلى المحرمات يكفيه رادعًا وزاجرًا أن يعلم أن الله ناظر إليه ونظر الله إليه؛ أسبق من نظره هو إلى المنظور إليه فأين الحياء من الله؟! أين إجلال العبد لنظر الله وتقواه لربه وخوفه منه؟! ما أشدها والله من غفلة، وما أسوأه من مشهد حينما يقلب العبد نظراته الخائنة والله ربه مطلع عليه بصير به عالم بسوء صنيعه، فبئس الحال والصنيع.

وما سقط من سقط في مهاوي الانحراف ودركات الانتكاس، وبراثن الشهوات المهلكة الموبقة إلا من خلال هذه الآفة ألا وهي إطلاق البصر كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها ... فعل السهام بين القوس والوتر

والعبد ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يَسُرُّ مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

وقد سئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بم يستعان على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الله أسبق من نظرك إلى من تنظر إليه.

---

(١) «الداء والدواء» ص [٢١٣]، ط. دار ابن رجب.

وقال المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب، كلما قويت المعرفة بالله قوي الحياء من قربه ونظره[١].

قال ابن القيم عليه رحمة الله: من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، والنظرة تفعل في القلب فعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه[٢].

رابعًا- مراقبة الله في اللسان:

وذلك بألا يتكلم المرء إلا بما يرضي الله وأن يتقي الله أن تخرج من لسانه كلمة تسخط الله عليه، فينبغي على العبد ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا وهو الذي ظهرت فيه المصلحة، وكان فيه النفع لصاحبه أو لأخيه، ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٣]، وهذا اللسان خطره عظيم، وشره جسيم فكم هتك به من عرض، وكم فرق به بين أحبة وكم هدمت به بيوت، وكم هاجت بسببه فتن، وكم سفك به من دم، وغصب من مال فليعلم العبد أن كل كلمة تخرج من فيه فإن الله يسمعها ويعلمها فليتق الله كل امرئ في لسانه فلا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يغتاب، ولا ينم، ولا يكذب، ولا يقذف مسلمًا أو مسلمة بسوء، ولا يؤذي مسلمًا أو مسلمة بكلمة خبيثة تكون سببًا في هلاك صاحبها في الآخرة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه فقال: «**كُفَّ عليك هذا**» قلت: يا

---

(١) «لتحقيق كلمة الإخلاص للحافظ ابن رجب» ص [٤١]، ط. دار الفرقان بتحقيق د.أسامة عبد العظيم.
(٢) «روضة المحبين» ص [٩٧] باختصار.
(٣) رواه البخاري برقم [٦٠١٨]، ومسلم برقم [٤٧].

رسـول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟**»[(١)].

قال عمر بن عبد العزيز: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه.

وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه.

وقال بعض البلغاء: احبس لسـانك قبل أن يطيل حبسـك، أو يتلف نفسـك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب.

وقال بعض الحكماء: من كثر كلامه كثرت آثامه[(٢)].

فاتـق الله في لسـانك فأنت مسـئولٌ غدًا بـين يدي الله عن كل كلمـة نطقت بها فإما ثواب وإما عقاب، لذلك اجعل من لسانك جنديًا تدافع به عن الدين، وتنصر به التوحيد والسنة وتدحض به الشرك والبدعة، وتقدم به النصيحة لإخوانك وتدعو به إلى الله عَزَّوَجَلَّ فاللسـان قد يصعب حبسـه لذلك وظفه في نشر الحق، هيئ به جـوًا إيمانيًا تعيش فيه فإذا جلسـت مجلسًـا تكلم عن الله وعن آيات الله ونعمه، أو اذكر قصصًا من كتاب الله وسـنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليكون مجلسك مجلس رحمة وخير وبركة.

خامسًا- مراقبة الله في السمع:

وذلك بأن يحفظ سـمعه عن سـماع محرم حرمه الله عَزَّوَجَلَّ كالسماع إلى الغيبة أو وقوع في عرض مسـلم بل ينبغي عليه أن يرد كل كلمة سـوء سمعها في مسلم بغير حق عن أبي الـدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مـن ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[(٣)]، وليحذر المؤمن أن يسمع ما يفسد إيمانه كالسماع لأصحاب الأهواء

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٦١٦]، وصححه الألباني في «الإرواء» ص [٤١٣].

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي [٢٦٦-٢٦٧] ط. جنة الأفكار.

(٣) رواه الترمذي برقم [١٩٣١]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٦٢٦٢].

من المبتدعة الذين يلبسون على الناس دينهم، ويلقون الشبهات الخبيثة الماكرة التي لا يراد من ورائها إلا صد المسلم عن الإيمان وخلعه من دينه بالكلية والعياذ بالله قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

إن من العجب العجيب أن ترى من المسلمين من يلقى سمعه وينصت إلى كلام المخرفين والمنحرفين الذين يظهرون على الشاشات للتشكيك في أصول ثابتة من ثوابت الدين، ثم يأتي ويقول إنهم يقولون كذا وكذا ولمثل هذا نقول: وما الذي يجلسك لاستماعهم هل أنت في شك مما أنت عليه؟! هل أنت عالم من الراسخين الذين يتتبعون تلك الشبهات لمحضها وإبطالها؟ هذا باب شر عظيم، وفساد كبير قد يكون سببًا في انتكاسك عن دينك وانسلاخك عنه عياذًا بالله، إن أموالًا طائلة تنفقها القنوات الشيعية وغيرها من أجل هذا الغرض الخبيث قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

قال يونس بن عبيد: ثلاثة احفظوهن عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلون مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء[(١)].

ومن مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السمع حفظ السمع عن سماع الأغاني والفحش والبذاء قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف**»[(٢)].

---

(١) «السير للذهبي» (٦/ ٢٩٣).

(٢) رواه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم برقم [٥٥٩٥].

سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

وقال مالك: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب.

وقال الشافعي: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الغناء؟ فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب، ثم ذكر قول مالك: إنما يفعله عندنا الفساق[1].

سادسًا- مراقبة الله في الكسب وطلب الرزق:

المؤمن طيب الخلق، طيب الكسب، طيب الظاهر والباطن، لا يمكن أبدًا أن يكسب رزقه إلا من حلال؛ لأنه موقن أن الرزق مقدر ولن يأتيه إلا ما قدره الله له، ولأنه يعلم أن كل جسم نبت من سحت فالنار أولى به، وقد حذرنا ربنا ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكل الحرام فقال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البَقَرَة: ١٨٨]، وفي صحيح مسلم حين ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام؛ فأنى يستجاب لذلك**»[2].

ويدخل في أكل الحرام أمور كثيرة خبيثة مهلكة لصاحبها فمنها أكل الربا والسرقة وأكل مال اليتيم وشهادة الزور، ومن أخذ الرشوة أو إعطائها، وبيع الشيء الذي فيه عيب بدون إخبار المشتري وغش السلع عند بيعها، والتطفيف في الكيل والميزان وغير ذلك، فليراقب الإنسان ربه وليحذر كل الحذر أن يلقى الله وفي ماله جنيه من حرام فوالله

---

(١) «إغاثة اللهفان» [٢٢٩-٢٣١]، ط. دار الإيمان ارجع إليه تجد تفصيل القول في ذلك.

(٢) رواه مسلم برقم [١٠١٥].

ثم والله لأن يموت الإنسان من الجوع خير له ألف مرة من أن يلقاه وفي بطنه كسب حرام، فنعوذ بالله وبالله نعوذ أن نلقاه على ذلك الحال.

سابعًا- مراقبة الله في الخلوات:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، معكم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته، ولا يغيب عنه شيء من أمركم قط، وآه من خبث الخلوات في هذا الزمان! فكم من الغافلين الخائنين إذا خلوا عن أعين الناس إذا بهم يجترئون على معصية الله ولا يبالون بنظر الله فهذا صنف يتصيد أعراض المسلمين ويخون مسلمًا في ابنته أو أخته وذاك خلا في الليل يتتبع العورات ويلهث وراء الفتيات، وذلك عكف أمام شاشة شائنة يخبث بنظراته الخائنة، ويفجر بتلك النظرات ناسيًا نظر الله إليه، وذاك جلس أمام شبكة عنكبوتية يدخل من خلالها إلى بيوت آمنة فيحدث فيها فسادًا عريضًا، فلهؤلاء وأمثالهم نقول: إذا كنت تخشى من نظر المخلوقين وتستحي أن يراك على حالك ويعلم به أحد الناس؛ فكيف لا تخشى نظر الله إليك واطلاع الله عليك؟! كيف لا تستحي من ربك وهو يراك ويسمعك؟!

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تُخفيه عنه يغيبُ
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وأن غدًا للناظرين قريبُ

إنني أخشى عليك أن تختم حياتك بسوء بسبب سوء طويتك قال الحافظ ابن رجب عليه رحمة الله: خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس.

فليكن حالك أخي كما قيل:

سري كإعلاني وتلك خليقتي ... وظلمة ليلي مثل ضوء نهارِ

قال بعض العلماء: ذنوب الخلوات تؤدي إلى الانتكاسات وطاعة الخلوات طريق للثبات حتى الممات.

هل فهمت أخي هذه العبارة إذا أردت الثبات على الإيمان والموت على الطاعة فإياك إياك ومعاصي السر فإنها شؤم عليك وهلاك لك فأنقذ نفسك من عذاب الله بمراقبته عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن، في الخلوة والجلوة.

ما أحلم الله عمن لا يراقبه ... كلٌ مسيءٌ ولكن يعلم الله

فاستغفر الله مما كان من زللٍ ... طوبى لمن كفَّ عما يكره الله

طوبى لمن حسنت سريرته ... طوبى لمن ينتهي عما نهى الله

فراقب الله في خلوتك فربك لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء فاحذر أن يمقتك ويطردك عن طاعته بسبب جرأتك على معصيته في الخلوات وجعله عَزَّوَجَلَّ أهون الناظرين إليك.

ثامنًا- مراقبة الله عند الغضب:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصني قال: «**لا تغضب فردَّد مرارًا قال: لا تغضب**»(١).

الإنسان إذا غضب وتمادى به غضبه فإنه ينغمس في أخطاء كثيرة يشتد ندمه عليها بعدما يفيق من غضبه، وفي لحظة الغضب قد يطلق امرأته، وقد يقطع رحمه وقد يغصب حقًا ليس له، وقد يرمي بريئًا بسوء، أو يقذف عرضًا ببهتان أو ينتقم لنفسه بأن يظلم ويتعدى حدود الله لذلك كانت هذه الوصية أن يراقب الإنسان ربه عند الغضب وذلك بأن يتمالك نفسه ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويكظم غيظه ويخرج من ذلك المكان إلى غيره حتى تهدأ ثورته عن سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي

---

(١) رواه البخاري برقم [٦١١٦].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلان يستبان وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد**» فقالوا له: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١)، وليستحضر العبد ثواب الله عَزَّوَجَلَّ إذا كظم هذا الغيظ ابتغاء وجه الله، ورد الغضب اتقاء لربه ومولاه روى أبو داود والترمذي بسند حسن عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن ينفذه دعاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّره من الحور العين ما شاء**»(٢)، لذلك إذا غضبت تذكر قدرة الله عليك، واطلاعه عليك ونظره إليك وإياك أن يكون غضبك وبالًا عليك بين يدي الله في الآخرة.

صور من المراقبة

القدوة الصالحة تبعث على التأسي وتدفع المؤمن الصادق إلى الاقتداء والاهتداء بأخلاق الموفقين من عباد الله، والمواقف الإيمانية تربي وتهذب إذا لاحظها المرء بعين الاعتبار قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ليست هذه المواقف التي أسردها في هذا الموطن وغيره مجرد حكايات نتسلَّى بها ونستمتع بسردها كلا إنها حجة من الله علينا، ودعوة إلى الفرار إلى الله وامتثال أمره، ومن هذه المواقف التي نذكرها في باب المراقبة ما يلي:

أولًا - الكريم بن الكرام:

إنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف الصديق بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه يقول ربنا العليم الحكيم في كتابه

---

(١) رواه البخاري برقم [٦١١٥]، ومسلم برقم [٢٦١٠].

(٢) رواه أبو داود برقم [٤٧٧]، والترمذي برقم [٢٠٢١]، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [٣٣٧٥].

الكريم: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٩]، تأمل هذا الإيمان، وهذا الثبات، وهذا اليقين، وتلك المراقبة في هذا الموقف الذي ينطق بروعة الصدق في الإيمان واليقين بمراقبة الله جَلَّجَلَالُهُ انتصر يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ على دواعٍ قوية للوقوع في المحرم وثبت وصبر عن الفحشاء مراقبة لربه وخشية له، تأمل هذه الدوافع لتعلم عظمة المراقبة لله جل جلاله:

١- لقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شابًا والشباب مركب الشهوة.

٢- كان عزبًا وليس عنده ما يعوضه.

٣- كان غريبًا والغريب لا يستحي مما يستحي منه المقيم.

٤- كان غلامها وتحت تدبيرها والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر.

٥- هي سيدته وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك.

٦- كانت هي الطالبة وأظهرت الرغبة التامة بالمراودة.

٧- تحققت الخلوة التامة وغلقت الأبواب.

٨- جاءت بالرغبة والرهبة وألحت في مرادها وقدت قميصه.

٩- كان زوجها ديوثًا لا يغار وعلم هذا من قوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ [يوسف: ٢٩]. وكذلك من تركها تخلو به بعد أن وقع ذلك حتى راودته النسوة ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٥١].

١٠- توعدته بالسجن إن لم يفعل ما تأمره به، وقد سجن يوسف فعلًا وآثر السجن على ارتكاب ما حرم الله[١].

إن هذا النبأ الكريم حجة على شباب الأمة الذين غرقوا في الشهوات وباتوا يلهثون وراء المحرمات؛ فليكن لهم هذا المشهد عظة وعبرة تردع السادر السفيه عما هو فيه، وترد المؤمن إلى إيمانه وتأخذ بناصيته إلى رضوان الله بحسن مراقبته جَلَّ جَلَالُهُ.

ثانيًا- الفاروق الأواب عمر بن الخطاب:

عن قتادة قال: لما ورد عمر الشام صنع له طعام لم يرقبله مثله فلما أوتي به قال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين باتوا لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهم الجنة، فاغرورقت عيناه فقال: إن كان حظنا في هذا ويذهب أولئك بالجنة لقد بانوا بونًا بعيدًا[٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ بخٍ والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك[٣].

وعن قتادة قال: كان معيقب على بيت مال عمر فكسح بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا فدفعه إلى ابن عمر قال معيقب: ثم انصرفت إلى بيتي فإذا رسول عمر قد جاء

(١) انظر «روضة المحبين» لابن القيم [٢٧٧-٢٧٨] و«تفسير السعدي» [٤٤٦].

(٢) «محض الصواب في فضائل عمر بن الخطاب» ليوسف بن حسن المبرد (٢/ ٦٢٤)، ط. الجامعة الإسلامية قال: وفيه انقطاع لأن قتادة لم يسمع من عمر.

(٣) «الموطأ» لمالك بن أنس رقم [١٨٠٠] (٢/ ٩٩٢)، ط. دار إحياء التراث العربي.

يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده فقال: ويحك يا معيقب أوجدت عليَّ في نفسك سببًا؟ أو مالي ومالك؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد في هذا الدرهم يوم القيامة[١].

ثالثًا- شاهد من الأمم الماضية:

في حديث الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى غار تجد معنى المراقبة ظاهرًا لاسيما في حال هذا الذي كف عن ابنة عمه التي كان يحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ولكن تقواه لله ومراقبته له ردعته عن ذلك الفعل حين ذكر بالله، وفي حال الثالث يكون معنى المراقبة واضحًا جليًا حيث قال: اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك؛ من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[٢].

وفي خبر الأبرص والأقرع والأعمى الذين أراد الله تعالى أن يبتليهم فأرسل إليهم ملكًا فأعطى أحدهم واديًا من الإبل والآخر واديًا من البقر والثالث واديًا من الغنم وشفى كل منهم من مرضه ولكن خذل اثنان منهم وفاز واحد فقط؛ لأنه راقب ربه ومولاه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأتى (أي الملك) الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري؟ فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله** عَزَّوَجَلَّ **فقال: أمسك عليك مالك فإنما**

---

(١) «مناقب عمر» لابن الجوزي. [١٠٦]، وفي السند انقطاع.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٢١٥]، ومسلم برقم [٢٧٤٣].

ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[(١)]، إنه لم ينكر نعمة الله عليه ولم يجحد فضل الله الذي آتاه ولم يمنع ماله عن محتاج بخلًا وشُحًّا؛ لأنه علم أن المال من الله وأن المال وسيلة لإقامة العبودية لله وليس غاية يسعى إليها ثم يصير همًا مسيطرًا وبلاء يشتت صاحبه ويهدم إيمانه، وذلك إذا جعل المال في قلبه، أما إذا جعله في يده، وأهلكه في الحق، ونفع به الخلق؛ فنعم المال الصالح للرجل الصالح!

رابعًا- راع في الفلاة يراقب مولاه:

عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة فعرسنا فانحدر علينا راعٍ من جبل فقال له ابن عمر: أراع؟ قال: نعم، قال: بعني شاة من الغنم قال: إني مملوك، قال قل لسيدك: أكلها الذئب -يريد أن يختبره- قال: فأين الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال ابن عمر: فأين الله؟! ثم بكى ثم اشتراه بعد فأعتقه.

وفي رواية: فأعتقه واشترى له الغنم[(٢)].

إن للتقي حاجزًا ومانعًا يمنعه من معصية ربه في كل موطن، فهو أينما ذهب وأنى اتجه يعلم ويوقن أنه لا يغيب عن ربه جَلَّجَلَالُهُ ولذلك فهو يراقب ربه السميع العليم في كل آن وحين، ويخشى أن يراه الله على معصيته فيبوء بغضبه أو عذابه، فهو حي القلب يقظ الضمير، خاشع الفؤاد، ذليل الطرف، ودائم الذكر والاستغفار والذل والانكسار بين يدي الملك العزيز الغفار.

عن عمران بن خالد قال: قال الحسن البصري: إن المؤمن يصبح حزينًا ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين، بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٦٤]، ومسلم برقم [٢٩٦٤].

(٢) «السير للذهبي» (٣/ ٢١٦)، ط. الرسالة.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ١٣٢).

وعن طلحة بن صبيح عن الحسن البصري قال: المؤمن من يعلم أن ما قال الله عَزَّوَجَلَّ كما قال، المؤمن أحسن عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جبلًا من مال ما أمن دون أن يعاين، ولا يزداد صلاحًا وبرًا وعبادة إلا ازداد فرقًا، يقول: لا أنجو والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيغفر لي ولا بأس عليَّ، وينسى العمل، يتمنى على الله تعالى[١].

خامسًا- مراقبة الله عند مفارقة الحياة:

لا يتخلى المؤمن عن مراقبة ربه ما دامت به حياة، وما ترددت في صدره الأنفاس تأمل هذا المشهد الكريم لصحابي كريم من أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألا وهو عبد الله ابن عمرو بن العاص وذلك حينما حضرته الوفاة تذكر وعدًا قد وعده بعض الناس فأمر بإنجاز الوعد حتى لا يلقى الله وفي عنقه وعد لمسلم ما وفى به، عن هارون بن رئاب أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال: انظروا فلانًا -لرجل من قريش- فإني كنت قد قلت له في ابنتي قولًا كشبيه العِدة، وما أحب أن ألقى الله تعالى بثلث النفاق، وأشهدكم أني قد زوجته[٢].

سرائر المتقين

من امتلأ قلبه بالإيمان كانت سريرته كعلانيته بل أفضل، وإذا خلا وحده في مكان أقبل بكل قلبه على ربه، وعكف بجوارحه متبتلًا إليه متضرعًا بين يديه، يجد أنسه وراحته وقرة عينه بذكر الله وتلاوة كلامه، يجد السكينة والطمأنينة وطيب الحياة في التضرع والتذلل بين يدي الله، وطول القنوت والمناجاة، فهو يقظ القلب، حي الضمير، مرهف الحس، نيِّر الفؤاد، لا يسعده ولا يفرحه إلا الإقبال على الطاعة لربه جَلَّجَلَالُهُ، تعالوا إخوتي ننظر في سيرة أصحاب السرائر النقية التي عمرت بما يرضي الله جَلَّجَلَالُهُ.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٥٣).

(٢) «السير» (٨/ ٣٩٦).

عن شيبة بن نعامة قال: كان علي بن الحسين يُبخَّل فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لايدرون من أين كان معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عَزَّوَجَلَّ[1].

قال محمد بن واسع: لقد أدركت رجالًا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلَّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالًا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خدِّه لا يشعر به الذي إلى جنبه.

وهذا حسان بن أبي سنان تقول عنه زوجته: كان يجيئ فيدخل في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها فإذا علم أني نمتُ سلَّ نفسه فخرج ثم يقوم فيصلي قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك، ارفق بنفسك فقال: اسكتي ويحك، فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زمانًا.

ولله درُّ من قال:

ليس الخمول بعارٍ ... على امرئٍ ذى كمالِ

فليلة القدر تخفى ... وتلك خير الليالي

قال أحمد بن الصلت: سمعت بشر بن الحارث يقول: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وإخفاء مكانه عنهم.

قال أبو بكر محمد بن الفياض سمعت زريقًا الدلال يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: اللهم استر، واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٣٧٦)، ط. دار المنار.

وعن عباس بن دهقان قال: قلت لبشر بن الحارث: أحب أن أخلو معك قال: إذا شئت، فبكرت يومًا فرأيته قد دخل قبة فصلى فيها أربع ركعات لا أحسن أن أصلي مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إليَّ من الشرف، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئًا، فلما سمعته أخذني الشهيق والبكاء، فلما سمعني قال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم.

وكان بشر يقول: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره[1].

قال أبو أسامة: دخلت على محمد بن النضر الحارثي فرأيته كأنه منقبض فقلت: كأنك تكره أن تؤتى؟ قال: أجل، فقلت: أو ما تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!

وقيل لمالك بن مغول وهو جالسٌ في بيته وحده: ألا تستوحش؟! فقال: أويستوحش مع الله أحد؟!

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته ويقول: من لم تقر عينه بك فلا قرَّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أنس.

وقال غزوان: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي.

وقال مسلم بن يسار: ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال مسلم العابد: لولا الجماعة ما خرجت من بابي أبدًا حتى أموت وقال: ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم، ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه، ثم غشي عليه.

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٥٠٤-٥٠٦-٥٠٧)، ط. دار المنار.

قال إبراهيم بن أدهم: أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك، ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئًا، فإذا كنت كذلك لم تبال في برٍّ كنت أو في بحر أو في سهل أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل، وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف.

وقال الفضيل: طوبى لمن استوحش سوى من الله وكان الله جليسه.

وقال أبو سليمان الداراني: لا آنسني الله إلا به أبدًا.

وقال معروف لرجل: توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك وموضع شكواك.

وقال ذو النون: من علامة المحبين لله أن لا يأنسوا بسواه، ولا يستوحشوا معه ثم قال: إذا سكن القلب حب الله تعالى أنس بالله؛ لأن الله تعالى أجل في صدور العارفين أن يحبوا سواه[١].

وعن أم عبدان امرأة هشام بن حسان قالت: كنا نزولًا مع محمد بن سيرين في الدار فكنا نسمع بكاءه بالليل وضحكه بالنهار.

عن عبد الله بن السري قال: قال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حمل به عليَّ الدين ما هو؛ قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس. فحدثت به أبا سليمان الداراني فقال: قلت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون وكثرت ذنوبي وذنوبك فليس ندري من أين نؤتى[٢].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب، ص [٩٠]، ط. دار ابن رجب.

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٦)، ط. دار الوعي.

وعن أبي جعفر الحذاء قال سمعت ابن عيينة يقول: إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور[١].

وقيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق[٢].

الابتلاء بتيسير أسباب المعصية

قد يبتلى العبد بأن تجعل المعصية قريبة منه سهلة ميسورة، قد تهيأت لفعلها كل الأسباب المتاحة وذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب ومن يراقبه سبحانه ويخشاه، وفي مثل هذا الموطن يظهر صدق الإيمان من كذبه، ويظهر ثبات المؤمن وانتكاس الغافلين الخائنين ولو تأمل المرء في حياته لوجد كثيرًا من مثل هذه النماذج قد ابتلي بها في سالف عمره أو يبتلى بها في حاضره وسوف يبتلى بها في مستقبله، وحتى يتجلى هذا المعنى أكثر أورد أمثلة لذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ثم اتبع ذلك بشواهد من واقع الحياة.

من أمثلة ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [المائدة: ٩٤]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لابد أن يختبر الله إيمانكم، ﴿ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ﴾ أي: شيء غير كثير فتكون محنة يسيرة تخفيفًا منه تعالى ولطفًا وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ أي: تتمكنون من صيده ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة، ثم ذكر الحكمة في

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٢٢)

ذلك الابتلاء فقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب، ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ منكم بعد هذا البيان الذي قطع الحجج وأوضح السبيل ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجع لا يقدر على وصفه إلا الله لأنه لا عذر لذلك المعتدي والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده وأما إظهار مخافة الله عند الناس فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس فلا يثاب على ذلك[1].

قد يخرج المرء محرمًا بحج أو عمرة ومن المعلوم أنه حينئذٍ لا يجوز له أن يصطاد صيد البر ولكنه يبتلى بأن يأتيه صيد فيكون قريبًا منه جدًا ومن السهولة بمكان أن يرميه بسهم أو أن يمسك به وقد يكون هذا المحرم جائعًا والصيد ثمين سمين سيسد جوعته ويغنيه وفي هذا الموطن يظهر الإيمان فيكف المؤمن الصادق عن هذا الصيد خوفًا من ربه جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

روى الطبري عن قتادة أنه قال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ ذكر لنا أنه إذا كان يوم السبت أقبلت الحيتان حتى تتبطح على سواحلهم وأفنيتهم، لما بلغها من أمر الله في الماء، فإذا كان في غير يوم السبت، بعدت في الماء حتى يطلبها طالبهم فأتاهم الشيطان فقال: إنما حرم عليكم أكلها يوم السبت فاصطادوها يوم السبت وكلوها فيما بعد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي [٢٥٩]، ط. دار ابن الجوزي.

عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، صار القوم ثلاثة أصناف، أما صنف فأمسكوا عن حرمة الله ونهوا عن معصية الله، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله هيبة لله، وأما صنف فانتهك الحرمة ووقع في الخطيئة(١).

والشاهد من ذلك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لما حرم عليهم الصيد يوم السبت وأباحه له بقية الأيام وقد ابتلاهم ربهم بأن وجدوا الأسماك تأتي في يوم السبت ظاهرة على وجه الماء وقريبة من الشواطئ وتراها أعينهم ويسهل عليهم صيدها جدًا وهذا ابتلاء وامتحان إيمانهم بالله ومراقبتهم له، ولكنهم فشلوا وزلوا وسقطوا في هوة المعصية الأثيمة؛ فاستحقوا انتقام الله وعذابه ومسخهم الله إلى قردة وخنازير وما نجا من عذاب الله إلا من سلم من ارتكاب المحرم وراقب ربه ومولاه جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن أمثلة الابتلاء بتيسير المعصية ما وقع لطائفة أخرى من بني إسرائيل بعد نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم الطائفة الذين خرجوا للقتال مع الملك الصالح طالوت، وبين لهم نبي الله طالوت أنه سيعترض طريقهم نهر من الماء العذب وهم عطاش لكن عليكم ألا تشربوا منه إلا غرفة واحدة ولكن أكثرهم ما صبروا عن الشرب من هذا الماء القريب من أيديهم وفي هذا قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومن أمثلة هذا في الواقع أن يجد إنسان خلوة بامرأة ما وتكون الظروف كلها مهيئة لينال منها حرامًا ولا يجد منها هي مانعًا ولكن إذا راقب الله وتذكر أن الله يسمعه ويراه انزجر وانصرف عن هذا الموطن فورًا من قبل أن تمسه النار.

---

(١) «تفسير الطبري» برقم [١٥٢٨٤].

ومن أمثلة ذلك أن يدخل أحد الناس على موظف لينال منه توقيعًا يأخذ به حقًا ليس له ثم يقدم بين هذه الأوراق ورقة بمائتي جنيه ولن يكلفه الأمر شيئًا فقط عليه أن يوقع ولكن إذا استحضر نظر الله إليه ارتجف قلبه وخاف أن يدخل جسده مالًا حرامًا أو أن يخبث ماله ورزقه بهذا الخبث فيدفعه ويرفضه وأما إن كان غافلًا جاهلًا فإنه سوف يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.

ومن أمثلة ذلك أن تقع في يده أوراق يستطيع من خلالها غصب حق ليس له فيقتنص الفرصة ويسارع بأكل أموال الناس ظلمًا وسحتًا وقد حدثني بعض الناس بأنه ظل يعمل خارج البلاد قرابة خمسة عشر عامًا وكان قد استأمن قريبًا له وكان -كما يقول هو- من أقرب الناس إليه نسبًا ورحمًا وبعد هذه السنوات الطويلة إذ به يفاجأ بأن قريبه قد غصب منه كل ما يملك وسجَّله باسمه هو حيث لا مستند لصاحب الحق ولا دليل يبين ملكيته لهذا المال، ففقد كل ما يملك والسبب خيانة قريبه له عندما وجد المال سهلًا ميسورًا في يده فسطا عليه وغصبه.

ومن أمثلة ذلك أن يجري أحد الموظفين جردًا لحسابات خزانة لمؤسسة أو غير ذلك فيجد أن ثمة مال زائد تنضبط الحسابات بدونه وإن أخذه فلن يكتشف أحد الأمر فإذا أخذه فقد خان وأكل الحرام واستحق من الله العقاب إن لم يتب ويسارع برد الحق إلى أصحابه.

ومن أمثلة ذلك أن يقدم أحد الشباب على خطبة فتاة ثم بسبب جهل أهلها يترك في خلوة معها بل وتغلق عليه وعليها الأبواب بحجة أنهما مخطوبان فيفعل الأثيم معها كل محرم ثم يدعها بعدما تلطخ بإثمها وإثم أهلها وهذا واقعٌ فعلًا في حياة الغافلين الجهلة الذين لا يعرفون من الإسلام إلا ما يوافق الأعراف والتقاليد ولقد حدثني بعض الإخوة

الدعاة أن سائلًا أتاه فقال بأنه يريد أن يترك مخطوبته قال: لم؟ قال: إنها ليست بكرًا، قال: كيف عرفت؟ قال: لقد جامعتها فاكتشفت ذلك، فقال: هذا زنا هذا حرام!! فقال: إن هذا قد تم بعلم أمها!

أرأيت لو راقبنا الله حقًا أيكون هذا حالنا؟! أرأيت لو اتقينا الله أكان الأمر يصل بنا إلى هذا الدرك المزري؟!

ومن النماذج التي يقع فيها الابتلاء بتيسير أسباب المعصية أن يحتاج إنسان إلى مال ويظل يبحث عمن يقرضه فلا يجد وتغلق أمامه كل الأبواب ثم يعود إلى بيته فيجد من يطرق عليه بابه ويقدم له ما يريد من المال ولكن بشرط أن يرده بزيادة ربوية، سبحان الملك تغلق كل الأبواب المباحة ثم يفتح هذا الباب المحرم ويأتيه إلى داره بسهولة ويسر فإن كان تقيًا مراقبًا لربه رفض أن يأخذ من هذا المال شيئًا وإن حدث ما حدث، أما إن كان خوارًا سفيهًا ضعيف الإيمان فإن يده ستمتد لتلوث ماله ونفسه بالربا ويستجلب لنفسه لعنة الله عياذًا بالله.

والأمثلة في الواقع كثيرة لها أكثر من لون وتتشكل في أكثر من صورة لكنها تلتقي كلها في هذا المعنى أن يبتلى المرء بمعصية يسهل عليه فعلها ليختبر الله إيمانه ويبلو صدقه وتقواه ليميز الله الخبيث من الطيب، والتقي من الشقي، والمهتدي من الغوي، فاتق الله واعلم أن الله معك حيث كنت، واحفظ الله يحفظك، واعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما أوصانا بذلك سيد الخلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

السبيل إلى مراقبة الله

كيف يزداد العبد مراقبة لربه؟ وكيف يقوي في نفسه ملكة المراقبة لله جَلَّجَلَالُهُ؟ إن المراقبة عملٌ إيماني قلبي يزداد بزيادة الطاعات وينقص بالمعاصي والسيئات.

ومن الوسائل التي تقوي المراقبة في القلب وتستجلبها ما يلي:

١- علم العبد وتيقنه بصفات الرب جَلَّجَلَالُهُ:

فالله جَلَّجَلَالُهُ لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عنه شيء فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فمهما توارى العبد واختبأ واختفى واستتر فلن يغيب كيده وعصيانه عن الله أبدًا.

يا كاتم الذنب ومخفيه ... أين من الله تواريه

بارزت بالعصيان رب العلا ... وأنت من جارك تخفيه

وعن أبي حامد الخلفاني أنه أنشد الإمام أحمد هذين البيتين:

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني

فأمره بإعادتهما فأعادهما عليه فدخل أحمد داره وجعل يرددهما ويبكي.

فإذا استشعر العبد نظر الله إليه استحيا من أن يراه الله على قبيح فعله كما قيل: إن كنت تعتقد أن الله لا يراك وأنت تعصيه فما أعظم كفرك بالله وإن كنت تعتقد أن الله يراك وأنت تعصيه فما أعظم جرأتك على الله، وما أقل حياءك من الله جَلَّجَلَالُهُ!!

كذلك ليعلم العبد قدرة الله عليه وأن الله عَزَّوَجَلَّ شديد العقاب فليحذر العبد أن يأتيه عذابٌ أليم وذل مقيم، فكم من معصية أهلكت وأوبقت، كم من معصية أذلت

وأذهلت! كم من معصية جلبت عارًا وخربت ديارًا وهدمت بيوتًا! كم من معصية يتجرع أهلها الحرمان والهوان والخسران والندم والحسرات!! قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُودٌ: ١٠٢].

وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورَىٰ: ٣٠].

وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٥].

وفي قصص الأنبياء مع قومهم بيان لانتقام الله ممن عصاه وبيان لعاقبة الكبر والتكذيب، والعناد والعصيان ونعوذ بالله من الخذلان تأمل فيها وتدبر تجد ما يردعك، تأمل تر فيها ما يزجرك عن معصية الله ويدفعك إلى طاعة الله والذل له جَلَّجَلَالُهُ ومراقبته سبحانه في السر والعلن

عليك منك إذا ما خلوت مرتقبُ فلا تأت في السر مالم تأت إعلانًا

٢- استحضار شهود الجوارح على العبد بين يدي الله:

إن الجوارح تنطق يوم القيامة وتشهد على العبد بين يدي الله بما اقترف من آثام، وبما أحدث من ذنوب وعصيان فالألسنة تشهد والأيدي تشهد، والأرجل تنطق وتشهد، والجلود تشهد، فياله من موقف حين تتكلم الجوارح وتخبر بما اجترحه العبد في دنياه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النُّورِ: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

[فُصِّلَتْ: ٢٠-٢١]

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضحك فقال: «**هل تدرون مم أضحك؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «**من مخاطبة العبد ربه، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، ثم يختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل**»[(١)].

فإذا استشعر العبد أن هذه الجارحة التي عصى بها ربه ومولاه، وتعدى بها حدود الله تكون خصمًا له يوم القيامة فتشهد عليه بما عمل وتقرُّ بين يدي الله وتعترف بما جناه صاحبها واقترف فيالها من حسرات حينما يفاجأ بأن أعضاءه تنطق وتخبر بما عملته من سيئات والله لو استحضر هذا المعنى لانزجر عن كثير من سيئات عمله وقبيح كسبه وفعله.

٣- العلم بأن ثمن المراقبة الجنة:

قال الله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣١-٣٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢]، ففي هذه الآية يخبر الله تعالى عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٩٦٩].

يـراه أحـدٌ إلا الله تعالى بأنـه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل[(١)].

قال الإمام أحمد: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى. وقال مجاهد بن جبر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال: هو الرجل يخلو بمعصية الله فيذكر مقام الله فيدعها فرقًا من الله.

عن شقيق بن سلمة: أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، قال: لقد علمت أن التقي ذو نهية.

يعني إذا ذُكِّر بالله ذكره وانزجر عن معاصيه وذلك لتقواه لله ومراقبته له جَلَّجَلَالُهُ وهذا كما قيل:

يتجنب الهفوات في خلواته ... عفُّ السريرة غيبه كالمشهد

وقال بشر بن الحارث: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد.

٤- عمارة الأوقات والخلوات بأنواع الطاعات:

من عمَّر وقته بطاعة ربه وشغل جوارحه بها ألفت الطاعة، وأنفت من المعصية؛ لأن من بركة الطاعة أن تستجلب مثلها ومن شؤم المعصية أنها تورث معاصي أخر وتعمي القلوب عن الحق، والتقي الأريب هو من جعل الخلوات مليئة بالذكر والتضرع والدعوات لاسيما في زمن انتشار الفتن وإحاطتها بالعبد أنى ذهب، فإذا خلا بنفسه فهي غنيمة ثمينة كريمة حيث يجد فرصة ليتلو كلام الله ويتدبره وأن يتعلم علمًا ينفعه أو ينظر في سيرة الصالحين فيتأسى بهم أو يتفكر في خلق الله وحال الخلق من حوله ويتأمل حاله مع ربه ويحاسب نفسه ليدفعها إلى مزيد من العمل ويزجرها عن تثاقلها وقعودها عن

---

(١) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» ص [١٤٢٦]، ط. دار السلام.

طاعة الله جَلَّجَلَالُهُ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لابد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته[(١)].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل.

فإذا شغلت الجوارح بالطاعات وشغف بها القلب لم يكن ثمة مكان لغيرها لأن المشغول لا يشغل.

قال الحسين بن مطير:

ونفسك أكرم عن أمور كثيرة ... فما لك نفس بعدها تستعيرها

ولا تقرب المرعى الحرام فإنما ... حلاوته تفنى ويبقى مريرها

٥- العلم بأن عدم المراقبة سبب لسوء الخاتمة:

يقول صديق حسن خان: طول الإلف للمعصية يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه في تلك الحال يختم له بالسوء[(٢)].

ويقول الحافظ ابن رجب عليه رحمة الله: خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ لا يطلع عليه أو من جهة اعتقاد سيئ ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٢٦).

(٢) «يقظة أولي الاعتبار» ص [٢٠٥-٢٠٦].

(٣) «جامع العلوم والحكم» ص [١٢١]، ط. دار ابن رجب.

فيا أخ، انتبه من غفلتك، وعد إلى الله من قريب؛ فإن ثمار المعاصي مرة، وعقاب الله عليها شديد، ولن تخفى عن الله ذرة من عملك قط، فالله يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فأعمالك تحصى عليك، وسوف يحاسبك الله عن كل لفظة، وعن كل خطوة، وعن كل نظرة، وعن كل ما اقترفت يداك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

فيا أيها الغافل تيقظ

تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم
تموت غدًا وأنت قرير عين ... من الغفلات في لجج تعوم
لهوت عن الفناء وأنت تفنى ... وما حي على الدنيا يدوم

فمن لم يراقب الله خذل، ومن جعل الله أهون الناظرين إليه فقد خسر وضل، ومن لم يتق الله ضاع قدره وخسر نفسه وذل.

٦- معرفة أن المراقبة من سبل النجاة:

مراقبة العبد لربه تنجيه، ومعصيته ومخالفة أمره تهلكه وترديه، ومن راقب الله حفظه من كل مكروه وسوء في الدنيا ومن العذاب في الآخرة قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلن، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى**»[(١)]، وفي زمننا هذا الذي انتشرت فيه الفتن، وهلك بسببها كثير من الهالكين هناك حصون أمان وموائل اطمئنان يأوي إليها الصادقون فيجدون في ظلها قرة العين وراحة البال،

(١) «مسند الشهاب» (١/ ٢١٤) برقم [٣٢٥]، وصححه الألباني في «الصحيحة» [١٨٠٢].

وطمأنينة القلب ومن ذلك الالتفاف حول العلماء الربانيين والسماع منهم، وديمومة المراقبة لله في السر والعلن، وفي طاعة الله في بيوت الله حيث يتلى القرآن، ويذكر الرحمن ويتعلم العلم وتقام الصلوات والشعائر نجد أنها تعد بمثابة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها كان من المغرقين.

فالزم أقدام العلماء في دروس العلم وتعلم من هديهم وسمتهم وأخلاقهم.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن اليقين ما تبلغنا به جنتك، ومن الصبر ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم املأ قلوبنا بتقواك وأسعدنا يوم القيامة برؤياك، وقنا ربنا شر نفوسنا إنك على كل شيءٍ قدير.

obeikandl.com